أحية أم ميتة ؟

لشاعر الهند وفيلسوفها طاغور

بقلم الأديب شوقي شهاب السعدي

— ١ —

لم يكن « لسكادامبيني » قريب من آل أبيها تمسها رحمه ، ولا نسيبٌ من عشيرة زوجها تعتمده أو تعول عليه ، فقد أدرك أولئك الموت جميعاً حتى لم يبق على أحد غير طفل صغير لحيها « سارادا سنكار » أمير مقاطعة « راينهات » خلطته بنفسها ، ووطأت له مهاد رأفتها منذ أن مرضت أمه بعد الوضع فكفلته هي وعنيت بأموره ؛ والمرأة إذا ما احتضنت طفلاً لغيرها محضته خالص حبها الذي ما فوقه شيء ، ذلك بأنها ليس لها عليه حق من حقوق القربى أو النسب غير حق « المحبة الخالصة » ... والمحبة هذه لا تستطيع أن تثبت حقوقها بالصك والوثيقة التي تواضع « الاجتماع » عليها ، بل هي لا تريد أن يكون إثباتها بهذا . وإنما تريد أن تثبت بالعاطفة القوية ، وتعبد بالحنوّ المضاعف من عند أمثال هذه من النساء [1] .. وكذلك كان حب هذه المرأة الخائب قوياً مضاعفاً لذلك الطفل الصغير ...

وفي ليلة من ليالي « سرابان [2] » — والعالم ماض على نهجه المعهود — توقف قلب « كادامبيني » في صدرها الصغير المدنف بالحب والآلام عن الخفوق وسكت سكتة الأبدية الطويلة ، إذ توفيت المسكينة « بسكتة القلب » ليلتئذ على حين غرة . . .

وحمل الجثمان أربعةٌ من الرجال سراً إلى حيث يحرقونه بغير أن يجروا له شعائر الاحراق المعروفة حتى لا يؤخرهم رجال الشرط عما يريدون.. ومضوا به إلى حيث يحرق أهل تلك القاطعة موتاهم ، وهي بقعة في فسيح من الأرض لم يكن فيها غير كوخ صغير إلى جانبه حوض للماء وشجرة باسقة من أشجار « البانيان » وكانت ترى إلى ذلك آثار نهر قديم كان يجري في تلك الأرض من زمن بعيد ، ويظن الناس أن ماء الحوض ذاك قد أجري إليه من هذا النهر القديم فهم لذلك يقدسونه ويتبركون به .

وأدخل الرجل الجثة في الكوخ ومضى « كارجان » و « نيتائي » يلمسان حطباً للاحراق وبقي الآخران في الكوخ يحرسان الجثة

وقد كانت ليلة حالكة شملت بظلامها كل شيء ، وحجب سحابها المتراكم الكثيف النجوم في السماء .. جلس الاثنان صامتين في الكوخ ، وقد خبا المصباح ولم تجد المحاولات في إيقاده نفعاً إذ كانت علب الكبريت رطبة لا حيلة في الاستفادة منها . وبعد سكون دام طويلاً ، قال أحدهما :

— ما أشد حاجتنا الآن يا أخي إلى غليون من التبغ ! لقد أنستنا السرعة أن نجيء بشيء من ذلك

فأجابه الآخر : إن في استطاعتي أن أركض

(*) من كتاب « من روائع طاغور » الذي يصدر قريبا

(١) اللائي ينظرن إلى الطفل نظرتين : نظرة الأم المرءوم ونظرة المرأة الحانية باعتبارها إنسانا رقيق القلب

(٢) شهر من الشهور الهندية كان مثبتا في النص الانكليزي ؛ والظاهر أنه من شهور الصيف التي تهب فيها الرياح الموسمية من ناحية الجنوب الغربي محملة بالأمطار الغزيرة كما سيمر بالقارىء

إلى القرية فأجئ بما نحتاج ...

وفهم « بدهو » سبب رغبة صاحبه « بنامالى » فى الذهاب[1] فأجابه قائلا :

— ويخيل إلى أنى سأظل وحدى فى غضون ذلك !

ثم انقطع الحوار ، وشمل السكون تارة أخرى ، فكان الوقت يمضى فى بطء شديد حتى لكأن الدقائق الخمس تعدل ساعة كاملة ؛ وكان كل من الرجلين يلمن صاحبيه اللذين ذهبا بحجة الحطب ، ورتاب فى أنهما ذهبا لذلك . من يدرى فلعلهما يتداولان الحديث فى موضوعات شتى فى مخبئهما الأمين

ولم يكن يسمع فى ذلك السكون غير صرير الحشرات أو نقيق الضفادع التى بقرب الحوض .. وفجاءة خيل للرجلين أن الفراش قد تحرك قليلا كما لو كان البدن الذى فيه قد استدار من جنب إلى جنب . . . فارتجف كل من الرجلين فرقاً واستعاذ بالله مما يرى !

وفى اللحظة التى انطلق فيها هذان الحارسان من الكوخ متجهين إلى القرية كانت ترتفع فى جو الغرفة شهقة عميقة ! وبعد أن ركض الرجلان نحو ثلاثة أميال وافاهما الاثنان الآخران ، وما كان هذان ليعنيهما أمر الحطب ، بل كانا فى الواقع قد ذهبا لإزجاء الوقت بالتدخين والكلام ، حتى إذا ما عادا زعما أن قطع إحدى الأشجار قد تم وأنه لم يبق إلا أن تشق الشجرة لتحمل بعد قليل ... ولكن « بدهو » وصاحبه قصّا عليهما ما رأيا من أمر الميتة ، فسخر هذان منهما وشتماهما على أن تركا واجبهما المكلفين به !

ورجع الرجال الأربعة من فورهم إلى الكوخ ولكنهم إذ دخلوه لم يجدوا فيه غير الفراش خالياً من الجسد ! فاستولت عليهم الدهشة وحملق بعضهم فى وجوه بعض . . . أفى الممكن أن يكون قد أخذ الجثة ابن آوى ؟ ولكن أين مِزَق الثياب الباقية ؟ وبخروجهم من الكوخ رأوا على الطين عند باب الكوخ آثاراً صغيرة انطبعت عليه من أقدام امرأة سارت من قريب على ذلك الطين

... ولم يكن « ساراداسنكار » بالغبى ولا المجنون ليصدق هذه القصة الخيالية التى سيقصون عليه ، ولذلك عزموا — بعد تداول الرأى بينهم — على أن يعلنوا لقومهم أنهم أحرقوا الجسد ...

وعند ما انشق عمود الفجر ، وجئ بالحطب ، زعم الأربعة الحارسون للقوم أنهم أتموا الاحراق — نظراً لتأخرهم — بحطب غير هذا احتطبوه ! وإذ لم تكن لجسد الميتة قيمة فيسرق ، فقد أهمل الجميع السؤال عن كل ما يتعلق به ...

— ٢ —

ليس يجهل أحد أن الحياة قد تكون موجودة فى جسم من الأجسام فى حين أنه لا علامة لها فى ذلك الجسم ، وأنها ربما عادت فظهرت علائمها فى ذلك الجسم الذى قد بدا عليه الموت . . . وكذلك كان شأن « كادامبينى » فهى لم تمت بل توقفت أجهزة جسمها لسبب مباغت مجهول . . . ولما أفاقت أدارت الطرف فيما حولها فلم تر غير ظلام ضاربة أطنابها فى كل مكان ! وفى لحظة خاطفة طمس على ذاكرة « كادامبينى » وشعورها ، فاذا هى لا تعى شيئاً مما حولها حتى لكأن هذا الوجود كتاب

(١) وهو ما خيل إليه من أن الأرض مسكونة بالجن والأخيلة والأرواح (النص الانكليزى)

انطمست حروفه وتداخل بعضها فى بعض فليس إلى فهم ما فيه من سبيل ! . . . إنها الآن لا تذكر أكان « الطفل » قد ناداها بصوته المذب المستحب يستدعيها للمرة الأخيرة أم أنه لم يفعل من ذلك شيئاً ؟ بل هى لا تذكر أكانت قد تزودت فى هذه السفرة المجهولة طيبها — بهدية من « مال الحب » تدفعه أجرة السفر إلى تلك الربوع الصامتة ، أم أن شيئاً من هذا لم يكن ؟ . . . هى لا تدرى من كل ذلك شيئاً .

وما أرى إلا أنها حسبت هـذا المكان المظلم حفرة القبر ، حيث لا يرى فيها ولا يسمع منها شىء ، وحيث الحركة منقطعة ، فليس إلى صنع شىء من سبيل ، بل كل ما هنالك ظلام عام يشمل كل شىء .

ولكن عند ما هبت نفحة من الهواء الندى من جهة الباب ، ووصل إلى أذنيها تقيق الضفادع ، عاد إلى ذاكرتها كل شىء ، وعرفت صلتها بهذا العالم ...

وأنار وميض البرق الخاطف ما حولها فرأت حوض الماء ، وشجرة « البانيان » والبراح الفسيح وأشجاراً كانت تقوم على بعد . . . رأت ذلك كله وتذكرت أنها كانت تجىء إلى نفس هذا المكان فى بعض الليالى القمرة لتستحم فى هذا الحوض ، ولكم كان الموت فظيعاً مروعاً حين قارنت ذلك الماضى ببهجتها ممددة على أرض « المحرقة » !

لقد خطر لها — أول ما خطر — أن تعود إلى الدار ولكنها وقفت تحاور نفسها : « إننى ميتة ، فكيف يمكننى أن أعود إلى البيت ؟ ستكون عودتى نكبة لهم ؛ فانى قد غادرت مملكة الأحياء ، وما أنا الآن سوى خيال ... محض شبح ... فان لم يكن هذا حقاً — واستطردت تبرهن على كلامها السابق — فان لم يكن هذا حقاً ، فكيف أمكنها الافلات من قلعة « ساراد سنكار » الحصينة إلى أرض « المحرقة » فى منتصف الليل ؟ ثم إن شمائر الاحراق لم تنته فأين المكلفون باحراقها ؟ »

ثم استعادت مشهد ساعة موتها فى دار « سارا دسنكار » فصح عندها — وهى فى هذه الفلاة — أنها ليست من أفراد هذا المجتمع إنما هى مخلوق مرعب مشؤوم ، هى محض خيال ...

وبهذه الفكرة التى استنتجتها حسبت أن كل العرى التى كانت تربطها بهذه الدنيا قد وهت فانفصمت وخيل إليها أن بمقدورها — وهى صاحبة القوة الخارقة والحرية المطلقة — أن تفعل ما تشاء ، وأن تذهب حيث تريد ...

وجنت بوحى هذه الفكرة الجديدة فانطلقت خارجة من الكوخ بسرعة الريح ووقفت على أرض « المحرقة » وقد فارقتها كل ما كانت لها من آثار الحياء والخوف ... ثم لما سارت وأوغلت فى السير نال قدميها التعب ، وأدرك جسمها الاعياء فكانت تتخبط على غير هدى تارة فى الحقول المنخفضة وطوراً تخوض إلى ركبتها فى المياه !

وسمعت عند انبثاق أول أشعة الفجر صوت بعض الطيور فى ذرى الأشجار عن بعد ، فاعتراها الخوف إذ ما كانت تدرى نوع صلتها بالأرض وما هو عالم الأحياء ، فقد كانت إلى زمن يسير فى الفلاة الفسيحة بأرض المحرقة ، وقد أسدل الليل عليها سجفه فغطاها . كانت شديدة الثقة والاطمئنان متحكمة فى مملكتها التى تخيلتها لنفسها ، ولكن ما إن أضاء النهار ، حتى ملأ الناس نفسها رعباً منهم ! ذلك

بأن كلا من «البشر» و «الأرواح» يخاف الآخر، خوفاً منشؤه سكنى جماعات كل طائفة على جانب مختلف عن جانب الآخرين على ضفاف نهر الموت[1]

— ٣ —

كانت ثيابها ملطخة بالأوحال، ومظهرها — وهى تدلج بالليل — وأفكارها الغريبة السود، كل أولئك كان قد أكسبها هيأة امرأة مجنونة تلقى الرعب فى قلوب الناس، بل قد تغرى الأطفال على حصبها بالحجارة

وكان أول من رآها — لحسن الحظ — رجل مسافر اقترب منها حين وقعت عينه عليها، وقال :

— أيتها الأم الوقور ... أين تقصدين بهذا المطاف ؟

ولم تستطع «كادامبيتى» أن تجمع شتات أفكارها فتجيبه على ما سأل، وإنما كان جوابه منها نظرة ألقتها عليه وهى غارقة فى بحر من الوجوم عميق ... لم يكن فى حسبانها أنها ما زالت على صلة بأهل هذه الوجود بحيث يرونها امرأة وقوراً تستحق أن تسمع من مسافر سؤالاً يطرحه عليها ...

ثم استأنف الرجل قائلاً : تعالى يا أماه سأحملك إلى دارك فخبرينى أين تسكنين ؟

وفكرت «كادامبيتى» فيما عساها أن تقول للرجل ... لم يكن لها دار أب تأوى إليها، كما أنه ليس من الصواب أن تعود إلى بيت حميها بعد الذى حدث ... وإنها لكذلك إذ ذكرت صديقة طفولتها «جوكايا» ... إنها لم ترها منذ أيام الشباب، ولكنها كانت مع ذلك تراسلها، وربما خاصمتها أحياناً، وسبب تلك الخصومات أنها كانت تريد أن توضح لصديقتها أن حبها لها لم يكن ذا نهاية ولا محدوداً، فى حين أن «جوكايا» ما كانت تصدق أن حب صديقتها لها يساوى ما فى صدرها لتلك الصديقة من الحب !

وكانت كل من الصديقتين معتقدة بأن تلاقيهما — إن حدث مرة — فلن يفصمه الفراق !

وأجابت «كادامبيتى» المسافر قائلة :

— إنى قاصدة إلى دار «سريباتى» فى «نيسندابور» ولم تكن هذه المدينة قريبة، ولكنها كانت تقع على طريق الرجل فحملها إلى دار صديقتها. ولم تعرف الواحدة الأخرى بادئ ذى بدء ولكنهما استعادتا — شيئاً فشيئاً — ملامح الطفولة التى كانت آثارها على وجهيهما فتعارفتا

قالت «جوكايا» تخاطب صديقتها :

— يا للحظ ! ما كنت أحلم بأننا سنلتقى أبداً، ولكن حدثينى كيف جئت إلىّ يا أختاه ؟ كيف أفلتّ من دار حميك ؟ إنهم بطبيعة الحال لم يسمحوا لك بالخروج !

ولكن «كادامبيتى» ظلت صامتة ولم تجب ؛ ثم قالت أخيراً :

— أختاه ! لا تسألى عن شىء، بل دعينى أتبذ فى دارك هذه زاوية، واحسبينى فى عداد الخدم، فسأقوم بكل حاجاتك ...

فصرخت «جوكايا» قائلة :

— ماذا ؟ أأحسبك فى عداد الخدم فى دارى ؟ أنت يا أعز صديقاتى على ؟ أنت التى ... ومضت فى حديثها على هذا النمط

ثم جاء «سريباتى» زوج «جوكايا» فحدّثت

(١) أى أن الموت هو النهر الذى يجرى بين أرضى هاتين الطائفتين فيكون حدودها الطبيعة الجغرافية

« كادامبيني » فى وجهه طويلاً ، ثم ابتعدت عنه على مهل ... ولم يكن فيما عملت علامة من علامات الاحترام أو الأدب ؛ غير أن « جوكايا » اعتذرت عن صديقتها إلى زوجها من هذا التصرف الشائن ، ولكن « سريباتى » الذى كان يصدق كل ما كانت تقوله زوجه — قطع حديثها عليها وتركها خارجاً ، مضطربة قلقة البال

* * *

... عادت « كادامبيني » إلى صديقتها ولكنها لم تكن فى الحقيقة أمامها وجهاً لوجه ، بل كان الموت يفصلهما ، إنها لم تكن تألف الناس أو ترتاح إليهم ، ذلك بأنها كانت قد وقعت فى حيرة من « وجودها »[1] هذا ، مع كونها بقيت مالكة شعورها وملكاتها العاقلة ...

... كانت ترنو إلى صديقتها وتطيل الفكر وتحاور نفسها بهذا الحديث :

— إن لها زوجها وأعمالها . إنها تعيش فى عالم بعيد عن الذى أعيش فيه . إنها تساهم فى تحمل التبعة والمسؤولية مع الناس فى هذا الوجود ، بينما أنا محض روح . إنها فى عالم الأحياء ، وأما أنا ففى عالم الخلود ...

وما كانت « جوكايا » بالمرتاحة المطمئنة ، ولكنها ما كانت تدرى سبب ذلك ، والمرأة لا تحب « الغموض » أو الابهام لأنه مهما تصور فى صور شتى من « شعر » أو « بطولة » أو « معرفة وبحث » فانه لن يكون فى شكل .. أعمال « المنزل » وتدبير أموره[2] ، وذلك ما يجعل المرأة تعصف بكل شىء لا يناله إدراكها ، أو هى — على الأقل — تتناساه أو تلبسه صورة أخرى من عند نفسها فان لم تستطع أن تضمه فى واحدة من هاتين المنزلتين فليست هى امرأة ... إذ أنها عندئذ تخسر طبيعتها النسوية !

* * *

كانت « جوكايا » كلما أمعنت « كادامبيني » فى الذهول — ازدادت هى ضيقاً وتعجباً مما كان يثقل عقل صاحبتها من الأفكار ... ثم نجم من بعد ذلك خطر جديد ... إن « كادامبيني » أخذت تخاف من نفسها ! وأين تستطيع من نفسها المهروب؟ إن الذين يخافون الأرواح والأخيلة إنما يخافون — فى الواقع — ما وراء تلك الأرواح من أخطار وهم خائفون دائماً أينما حلوا ما دام بصرهم لا يقع على شىء ، ولكن خوف « كادامبيني » غير خوف الناس ، إن خطرها الذى تخشاه إنما هو فى نفسها هو ليس خارجاً عنها !

فكانت إذا خلت إلى نفسها فى الغرفة ، إذا جن المساء صرخت خوفاً ، وإذا رأت ظلها فى نور المصباح ارتعدت فرائصها فرقاً ! وكان من ذلك أن عم أهل الدار نوع من الفزع أقلقهم جميعاً ... حتى كانت الأشباح تتراءى للخدم ، بل و « لجوكايا » نفسها أيضاً ...

وفى منتصف إحدى الليالى خرجت « كادامبيني » من غرفتها مولولة باكية ووقفت بباب غرفة صديقتها قائلة :

— أختاه ! يا أختاه .. دعينى أرقد عند قدميك ولا تتركينى أنام وحدى !

وما كان سخط « جوكايا » ليقل عن فزعها ؛ لقد كان بودها أن تطرد صديقتها فى كل حين من الدار !

(١) يقصد حياتها الثانية التى بدأت بعد صحوتها

(٢) أى أن الغموض لا يتلاءم وطبيعة المرأة

وبعد محاولات شتى قام بها «سريباتى» استطاع أن يهدئ ضيفتهم ويدخلها إلى غرفة مجاورة لتنام فيها

* * *

وفى اليوم التالى استدعت « جوكايا » زوجها إلى غرفتها وقالت تعنفه :

— هل تدعو نفسك رجلا ؟ امرأة تهرب من دار حميها ثم تدخل بيتك ويمضى على ذلك شهر وأنت لا تشير إلى ضرورة ذهابها ولا تظهر منك بادرة أو علامة تدل على هذا ! سأعدها منّة على لو فسرت لى نفسك ... إنكم معشر الرجال جميعاً متشابهون ...

... والرجال باعتبارهم جنساً قائماً بذاته — لهم تحزب طبيعى ضد النساء على العموم ، وهذا ما يجعل النساء يحاسبنهم ويبالغن فى الحساب

لقد كان « سريباتى » يقسم لزوجه أن شعوره نحو « كادامبينى » ما كان ليتعدى الحد الذى تقتضيه الشفقة والرأفة ، وإن كان هذا لا يتفق فى الظاهر مع سلوكه معها . إنه يعتقد أن أهل دارها قد أساءوا معاملتها حتى لم تكد تطيقهم وذلك ما دعاها إلى الالتجاء إلى هنا . أفلو كان لها أب أو أم أكانا يتركانها كذلك ؟ وعلى هذا فقد قال :

— دعى الأمر كما هو ... وأنا لا أستطيع أن أؤلم هذه البائسة بأن أطلب منها الخروج من الدار

ولكن « جوكايا » حاولت شتى المحاولات لتحمل زوجها الخامل (!) على أن ينزل عند ماتريد حتى ارتأى — إحلالا للسلم فى داره — أن يرسل خطاباً إلى حمى « كادامبينى » ولكنه رأى أن نتيجة الرسالة قد لا تأتى بالمطلوب . ولذا قرر الذهاب إلى « رانيهات » ليجد الحل المعقول

وذهب « سريباتى »

وعادت « جوكايا » تقول لصديقتها :

— أيتها الصديقة ، إن من الصعب عليك أن تبقى هنا بعد هذا ... ما ترين الناس قائلين ؟

وتفرست « كادامبينى » فى وجه صديقتها وقد استولى عليها الدهش ثم أجابتها :

— وماذا على من الناس ؟

ودهشت « جوكايا » مما سمعت ثم قالت بحدة :

— إذا لم تكن لك بالناس علاقة ولا مساس ، فان لنا بهم ما ليس لك . كيف نفسر وجود امرأة غريبة وتأخرها عندنا ؟

فسألتها « كادامبينى » :

— وأين هي دار حميى ؟

قالت « جوكايا » وهى منذهلة ، مخاطبة نفسها :

— يا للهول ! ما الذى ستقوله المرأة المنكوبة بعد ذلك ؟

وفى بطء شديد أجابت « كادامبينى » :

— وما يعنينى من أمركم ؟ أأنا من أهل الأرض ؟ إنكم لتضحكون وتبكون وتحيون وكل منكم محتفظ بالذى له ، وأنا أتطلع فقط ... أنتم بشر ، وأنا محض خيال ... روح ... إننى لست أقدر أن أفهم كيف أبقانى الله بينكم فى عالمكم هذا !

... وكانت نظراتها وكلامها غريبين بحيث لم تستطع أن تفهم « جوكايا » من مرماها إلا اليسير . ولم تكن بعد ذلك قادرة على طردها ، ولا على أن تسألها غير ما سألت ، وانصرفت مثقلة الرأس بالأفكار ...

* * *

... كانت عودة «سريباتى» من « رانيهات » فى قرابة الساعة العاشرة مساء . وكان يغشى وجه الأرض سيل جارف من مياه المطر الهاطل بغير

انقطاع ، حتى ليخيل للمرء أن ليس لهذا التهتان حد ينقطع عنده ، ولا لهذه الليلة آخر تنكشف عنه وابتدرت « جوكايا » زوجها قائلة :

— حسن ...

ولكنه أجابها : « لدى الكثير مما أريد أن أقول » قال ذلك وقام إلى ثيابه فغيرها ، وأكل عشاءه ثم جلس ليروح عن نفسه بغليون من التبغ . وكان خلال ذلك شارد الذهن مشتغل الفكر ... وأما زوجه فقد كانت أثناء هذا تجاهد فضولها لتخفيه حتى إذا رأته استقر فى مقعده جاءت إليه فسألته :

— حدثني الآن عما سمعت !

— إنك ارتكبت بالذى اضطررتنى إليه أشنع الخطأ ... !

وأغضبها ماسمعت ... ذلك بأن النساء لا يرتكبن الأخطاء ، أو هن إن ارتكبنها فان الرجل العاقل الفاضل لا يأبه لذلك ، بل ربما كان الخير فى أن يتحملها على عاتقه هو ؛ وعلى ذلك فقد نَتَرتْ « جوكايا » مغضبة تقول :

— أجائز أن أسمع ما تقول ؟

فأجابها « سريباتى » : « أجل ! فالمرأة التى أدخلتها دارك لم تكن « كادامبينى » صديقتك ! »

وأحنقها أن تسمع هذا ، وأن تسمعه من زوجها ، فأجابت :

— ماذا ؟ ألست أعرف صديقتى ؟ أكان على أن أسألك عن أمرها لتعرفها لى ؟ إنك لماهر حقاً !

وأفهمها « سريباتى » أنه لا لزوم للجدال فى مهارته وذكائه ، فإن فى وسعه التدليل على صحة مازعم ذلك بأن « كادامبينى » صديقة « جوكايا » قد توفيت !!

فأجابته زوجه قائلة : « إصغ إلى ... لا شك فى أنك ارتكبت خطأ جسيما فإما أنك ذهبت إلى دار غير دارهم خطأ ، وإما أنك لاتحاول أن تطلعنى على جلية الخبر ! من ذا الذى كلفك الذهاب بنفسك ؟ اكتب رسالة وسيتضح كل شئ »

وكان « سريباتى » قد آلمه عدم اطمئنان زوجه إلى « حسن تصرفه » فاصطنع لذلك شتى البراهين ، ولكن بغير جدوى ... وبقيا كذلك حتى منتصف الليل فى أخذ ورد . ومع أنهما كانا متفقين على إخراج « كادامبينى » من البيت ، ومع اعتقاد « سريباتى » بأن ضيفته تخدع زوجه بمعرفتها المكذوبة ، وأن « جوكايا » زوجه تخونه فى هذه الضيفة بقبولها تلك المعرفة المكذوبة وإقرارها ضيفتها عليها . . . مع ذلك كله فما توصل لا هو ولا زوجه إلى نتيجة ما ، إذ لم يكن أحدهما — هو وزوجه — ليعترف بانتصار صاحبه فى الجدال ...

* * *

قال أحد الزوجين :

— إننا الآن فى مأزق ظريف حقاً . اسمعى أقل لك ، لقد سمعت الخبر بأذنىّ هذين فليس إلى تكذيب ما سمعت من سبيل !

فأجابته زوجه محنقة غضبى : « وماذا يعنينى مما تقول ؟ إننى أستطيع أن أبصر بأم عينى دون أن يساورنى الشك »

وبعد هذا الحوار قالت « جوكايا » لزوجها : « حسن ، فقل متى توفيت « كادامبينى » ؟ » تريد بذلك أن تجد فرق مابين تاريخ آخر رسالة وردتها من صديقتها وتاريخ الوفاة ؛ ولكنها إذ علمت تاريخ الوفاة وجدته بعد آخر رسالة من رسائل صديقتها بيوم واحد فقط ! وهال « جوكايا » الأمر وارتجفت

عند رؤيتها ذلك التاريخ ... بل إن « سريباتى » نفسه لم يبق على رباطة جأشه

... وإنهم لكذلك إذ فتح الباب بغتة ، وهبت من جهته ريح ندية فأطفأت المصباح فخيمت سدف الظلام على المكان كله وإذا « كادامبينى » تظهر فى الغرفة . لقد كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، والمطر ينهمر في الخارج هتوناً . فتكلمت « كادامبينى » قائلة :

— أيتها الصديقة ... إنى « كادامبينى » التى تعهدين . ولكنى لست من عالم الأحياء الآن . إنى ميتة !!

فأما « جوكايا » فقد صرخت رعباً ، وأما زوجها ، فما كان قادراً على أن ينبس ببنت شفة ... واستمرت « كادامبينى » تكمل حديثها :

— . . ولكن النجاة فى بقائى ميتة . . إنى ما ارتكبت خطأ ؛ إنه لا مكان لى بين الأحياء ولا فى عالم الأموات . . آه ، فالى أين أتجه ؟ ؟ وصرخت كأنها تريد أن توقظ العالم فى ذلك الليل الدامس المطير سائلة هذا السؤال : « آه . . إلى أين أتجه ؟ ! » قالت هذا وخرجت تاركة صديقتها مغمياً عليها فى دارها المظلمة — تضرب فى الأرض تفتش عن . . مأواها » ! !

***

لعل من الصعب أن نقول كيف وصلت « كادامبينى » إلى بيتهم فى « رانيهات » . . فقد تكتمت عند وصولها أولاً ولم تر نفسها لأحد ، بل قضت سحابة نهارها فى معبد طال عليه القدم — تتضور جوعاً . . وعند ما عمت ظلم السحاب الماطر الكون ، ودخل الناس إلى بيوتهم فراراً من العاصفة المنتظرة جاءت « كادامبينى » مقتربة من دار حميها ، خافقة الفؤاد ، ودخلت مستترة وراء قناع كثيف أسدلته على وجهها ، فلم يعترضها أحد من البوابين حاسبين أنها من بعض الخدم .

وظل المطر ينهمر ، والريح تعصف بغير انقطاع .. كانت ربة البيت — زوج « سارادا سنكار[1] » تلعب الورق مع أخت لها مترملة ؛ وكانت إحدى الخادمات فى المطبخ . أما الطفل فقد كان راقداً فى غرفة النوم . ودخلت « كادامبينى » الغرفة على صغيرها دون أن تشعر أحداً أو تستلفت نظر أحد ، وليس ندرى لم اختارت أن تجىء إلى دار حميها ؛ بل إنها هى نفسها لم تدر كيف كان ذلك منها ، إنما كانت قد تاقت إلى رؤية الطفل تارة أخرى . ولم تكن قد فكرت فيما ستعمله حين تنتهى من زيارة طفلها ، ولا أين تذهب .

رأت فى الغرفة المنارة الطفل راقداً ، وقد انكمشت قبضتا يديه ، وأنهكت بدنه الحمى ! لشد ماتشوق إليه فؤادها وظمأ إليه حين رأته راقداً كذلك آه لو أمكنها ضم هذا البدن المعذب إلى صدرها .

وحالا خطرت لها هذه الفكرة : « إن لا أحياء فمن سيرانى ؟ هذه أمه تحب « المعاشرة » و « القيل والقال » كما تحب الورق ! إنها لم تكن تقلق له أو تتعب من أجله على الأقل . . فمن يرعاه الآن كما كنت أفعل ؟ ؟ » . واستدار الطفل من جنب إلى جنب ، وصرخ — وهو مايزال فى نومه — : ياعمة ، أعطنى ماء ...

إذاً فحبيبها لم ينس بعد عمته . . . وفى سرعة جنونية عمدت إلى شىء من الماء فسكبته فى كوبة

(١) ساراداسنكار هذا هو أمير مقاطعة « رانيهات » وهو بطلة القصة « كادامبينى » وأبو الطفل « سايتس » الذي عنيت بتربيته

قربتها من صدرها ثم قدمتها له ليشرب .

ولم يكن الطفل ليستشعر الغرابة فى أخذ الماء من اليد التى اعتادها من قبل ، ما دام لم يصح من نومه تماماً

غير أن « كادامبينى » أرضت شوقها المُلِحّ بتقبيله ثم هزته ليستأنف رقاده ، ولكن الطفل استيقظ وعانقها :

— أقَدِمْتِ يا عمة حقاً ؟

— نعم أيها الحبيب

— إنك عُدْتِ ثانية ، فلا تموتى تارة أخرى

وقبل أن تتمكن من أن تجيبه على ما قال باغتتها المصيبة ، إذ دخلت إحدى الخادمات بكوبة مليئة بالحساء . . . ولكنها ما إن دخلت حتى أسقطت ما فى يديها ... وسمعت ربة الدار الصوت[1] فجاءت إلى الغرفة ! فاذا بها تقف كالخشبة المسندة لا تقدر على الفرار ولا الكلام . وأبصر الطفل كل هذا فهاله الأمر وصرخ باكياً :

— إبتعدى يا عمة ... إذهبى ... إبتعدى !

والآن ، الآن فقط أدركت « كادامبينى » أنها لم تمت !

إن الغرفة هى الغرفة الأولى ، والأثاث هو الأثاث القديم ، والطفل هو بعينه الطفل ، وحبها هو حبها الأول . . . كل أولئك قد عاد إلى « الحياة » كما عادت هى !

كانت قد عرفت فى دار صديقتها — أن « كادامبينى » صديقة الطفولة قد ماتت . أما الآن فقد علمت — وهى فى غرفة طفلها — أن « العمة » لم تمت . وقالت « كادامبينى » بصوت ينم عن الألم :

— أختاه ... لم تخافون منى ؟ أنظرن إلىَّ كما عهدتمونى

ولم تُطق حماتها صبراً وسقطت مصفرة الوجه قد أغمى عليها ...

. . . ودخل « ساراداسنكار » نفسه قصر الحرم ، وقال لها وأمارات الحزن والألم بادية على وجهه

— أهذا حسن ؟ إن « سايتس » ولدى الوحيد فلم أرَيْتِهِ نفسك ؟ ألسنا جميعاً أهلك ؟ لقد أهمل منذ أن ذهبت ، فكان يناديك ولكن بغير جدوى .. إنك قد غادرت العالم وقطعت صلاتك به ، وسنقيم لك كل شعائر الشرف والتكريم . وما احتملت « كادامبينى » أكثر من هذا فأجابت :

— أوه . . . إنى لست مَيتةً . . . آه كيف أستطيع أن أدَلّلَ لكم على أنى لست من الموتى ؟ إنى حيَّة . . . إنى أعيش . . . قالت ذلك وتناولت طاساً من النحاس فصكّت به جَبْهتها فتفجر الدم من جرحها ، فصرخت قائلة : « أنظروا . . . إنى أعيش »

كان « ساراداسنكار » قد وقف كصورة ... والطفل قد ملىء رعباً . . . وأما المرأتان فما زالتا مضطجعتين ... ثم صرخت كادامبينى :

— « لست ميتة ! لست ميتة »

ونزلت السلم إلى بئر فى قصر النساء وألقت بنفسها فيه ...

... ومن الطابق الأعلى سمع « ساراداسنكار » صوت ارتطامها فى البئر

كان المطر يتحدر طول الليل والنهار الذى أعقبه إلى الفجر .. إلى الظهر .. لقد ماتت « كادامبينى » وبموتها برهنت على أنها لم تكن فى الأموات !

« بغداد » فخرى شهاب السعيدى

(١) يقال لهذا الصوت فى العربية « اللدم »